تاريخ بنـــاء القرويين . . .

٢٤٥ - ٢٦٣ - ٣٠٦

إن كل أولئك الذين كتب لهم أن يزاولوا الدراسات التاريخية بصفة عامة وتاريخ المغرب بصفة خاصة يذكرون جيداً أن ابن أبي زرع في كتابه القرطاس نقلاً عن أبي القاسم ابن جنون في تاريخه لمدينة فاس ، وكذا سائر الذين حذوا حذوه من أمثال الجزنائي في زهرة الآس ، وابن خلدون في تاريخه : العبر ، وابن القاضي في جذوة الاقتباس وغيرهؤلاء يجمعون على أن مسجد القرويين بمدينة فاس شرع في حفر أساسه والأخذ في أمر بنائه أول رمضان من سنة ٢٤٥ (٣٠ نوفمبر ٨٥٦) بمطالعة العاهل الإدريسي يحيى الأول ، وأن أم البنين فاطمة الفهرية هي التي تطوعت ببنائه وظلت صائمة محتسبة إلى أن انتهت أعمال البناء وصلت في المسجد شكراً لله » ، وهذه حقيقة تاريخية لا يسمح الباحث لنفسه لإستسلام للشك فيها والترددأمامها سيما وهي ترجع لوقت مبكر من تاريخ المغرب أعني وقت بني مرين أوائل القرن الثامن الهجري ، بيد أننا نجد أنفسنا اليوم أمام وثيقة معاصرة للادارسة ، أنها لوحة منقوشة عثر عليها — عند أعمال الترميم — في البلاط الأوسط فوق قوس الخراب القديم الذي كان للقرويين قبل قيام المرابطين بتوسعة المسجد ، لقد اكتشفت مدفونة تحت الجبس وقد كتب عليها — في جملة ما كتب — بخط كوفي إفريقي عتيق : « ... بنى هذا المسجد في شهر ذي القعدة من سنة ثلاثة وستين ومائتي سنة مما أمر به الإمام أعزه الله داود بن أدريس أبقاه الله ... ونصره نصراً عزيزاً » .

وما دمنا في استعراض الآراء حول تاريخ بنـاء القرويين لابد أن نعرض لرأي ثالث الدكتور أوسكار لانز(١) ، فلقد ساق ترجمة لنقش قيل أنه عثر عليه

---

(١) Oskar Lens : Voyage au Maroc Paria 1886 Vol 2.

فوق « صفيحة فضية » مغروزة فى أحد جدران المسجد وتوجد ضمن هذا النص العبارة التالية : « ... بنى يوم الخميس من سنة ٣٠٦ أول شهر ربيع النبى ... » أى أى فى أيام ولاية يحيى الرابع ...

وحتى نرجع إلى حديث فاطمة وداود نشير إلى أن رواية الدكتور لانز لا نعيرها أى وزن من الناحية التاريخية لأنها خالية من كل سند ملموس سيما مع ما حكاه عن الطالب إدريس الذى زوده بهذه الوثيقة والذى لم يكتمه أنه وجد صعوبة فى الوصول إلى بقية النقش ، الأمر الذى يقرب إلى « أساطير » السياح أكثر مما يخدم الحقيقة التاريخية ، هذا مع العلم بأن أول ربيع الأول يوافق — حسابياً — يوم الثلاثاء وليس يوم الخميس... وبعد فلنرجع إلى ابن أبى زرع، واللوحة المنبعثة ولكن قبل أن نفتح الموضوع يجب أن نتعرف فى كلمة وجيزة عن عن الإمام داود بن أدريس تاركاً التفصيل للبحث الذى كنت كتبته خصيصاً عن هذه الشخصية(١) :

بالرغم من أن جميع المؤرخين بخلوا على داود هذا بأكثر من كلمة واحدة تتلخص فى أنه « لما توفى إدريس الثانى قام بالأمر بعده ابنه محمد ، وأن هذا الأخير قسم بلاد المغرب بين كبار أخوته ترضية لهم وكان من بينهم داود الذى استأثر بإقليم تازة . وقد رددت سائر المصادر صدى « الفتنة » التى نشبت بين بنى إدريس على أثر هذه « الترضية » لكنها لم تعد بحال لذكر اسم داود ، وقد كاد هذا الإسم يعد فى عداد الضائعين لولا عناصر ثلاثة :

أولها : اليعقوبى(٢) الذى يذكر أن داود بن ادريس كان والياً على عدوة

---

(١) التازى ، مجلة « دعوة الحق » العدد السابع ، السنة الثالثة إبريل ١٩٦٠ — مجلة « مجمع اللغة العربية » بدمشق المجلد ٣٦ جزء ٢ ص ٢١٢ .

(٢) اليعقوبى ، أخبار البلدان ، طبعة ليدن ١٨٩٠ — ص ١٣٧ Blsohöra Heapêria T. 18 - 1934 Page 41 - 42 - 43.

الأندلس وأنه كان «يدافع» يحيى صاحب عدة القرويين المعروفة بالمدينة العظمى .

ثانياً : الدرهم الموجود بالمكتبة الوطنية بباريز الذى يحمل اسم الإمام داود ابن ادريس (١) .

ثالثاً : هذه اللوحة الأثرية التى يحتفظ بها الآن فى المركز الرئيسى لمصلحة الآثار بالمملكة المغربية .

وبعد هذا نرجع إلى الحديث ...

هل القرويين من تأسيس فاطمة ؟ أو من عمل داود ؟ .

لقد كنت كتبت بمجرد وقوفى على اللوحة كلمة فى الموضوع نشرت فى مختلف المجلات العلمية سواء بالمغرب (١) أو القاهرة (٢) أو تونس (٣) وأسبانيا (٤) ، وكنت إ قصدت كما صرحت بذلك أن أثير انتباه الناس عليهم يساعدون على إضفاء الضوء على هذا الحقائق ، ومن سوء الحظ أننى إلى الآن لم أقف على « رد فعل » من طرف الذين يهمهم أمر التاريخ حاشا بعض « الفروض » التى تلقيتها من بعض الأساتذة الأجلاء الذين حرصوا على أن يجعلوا نقل القرطاس فى نجوة من الشبهة والريب .

ففى الناس من أوصى بنبذ أمر هذه اللوحة لأنها فى نظره تناهض « تواتراً » متوارثاً عبر الأجيال ، وفيهم من رجح أن تكون اللوحة قد نقلت من مكان آخر وغززت هنا . . . وأن ذلك تم على عهد الوطاسيين فى الفترة القصيرة التى رجع فيها النفوذ للشرفاء الأدارسة بواسطة محمد بن على الجوطلى (٥) .

---

(١) التازى — مجلة التربية الوطنية ، العدد الرابع سنة ١٩٦٠ ص ١٠ — ٢٣

(٢) مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، العدد الثامن ١٩٥٩ ص ٢٤٤ — ٢٤٥

(٣) التازى — مجلة الفكر — السنة الخامسة عدد ٦ مارس ١٩٦٠

(٤) التازى — مجلة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد — المجلد السادس ١٩٥٨ ص ٢٧٧ — ٢٧٨ .

(٥) Deverdun mèlanges d' histoire et d' Archèologie T. 11 page 72

وفى الناس طائفة ثالثة يصممون على أن يأخذوا بما ورد فى مدلول اللوحة نظراً أولاً لكونها « وثيقة معاصرة » ، وثانياً لما أثر فى هفوات عن القرطاس ، وثالثاً لكون بعض الرحالة والمؤرخين القدامى من أمثال اليعقوبى والبكرى وابن عذارى تحدثوا عن مدينة فاس بمسجديها العتيقين لكنهم لم يعرجوا على تأسيس القرويين على النحو الذى عرف فى القرطاس ...

فماذا تكون الحقيقة ؟ .

أما « التوصية » بنبذ اللوحة فأمر سلبى لا يسمح به المؤرخ النزيه ، وأما عن أمر نقل اللوحة وخاصة أيام الوطاسيين فإنه يبعده عندى أن التاريخ ظل صامتاً صمتاً مطلقاً عن مؤسسات داود ابن إدريس فى مناطق نفوذه فلايمكن أن ندعى إذن أنه أسس هناك « مسجداً » وأن « اللوحة » التى كانت على ذلك المسجد هى التى نقلت ! لكن إلا بعد هو القول بأن عملية النقل تمت على عهد الوطاسيين مع أنها وجدت تحت الجبس الذى ضرب — منذ نهاية دولة المرابطين — على سائر جهات البلاط الأوسط ، ولم يتحدث التاريخ أبداً عن إزاحة « التبليط »[1] الذى قام به فقهاء فاس أو المسؤولون فى الدولة الموحدية ، لذا فأمام قوة هذه الوثيقة الناطقة واعتباراً لما نقل عن اليعقوبى وعرف من أمر السكة الداودية واحتراماً لما نقل عن أبى القاسم بن حنون[2] ، وأبى محمد عبدالملك بن محمود الوراق[3] مما تردد صداه فى الأنيس المطرب وانعكس فى زهرة الآس والعبر والحذوة ، ونظراً لأننا لم نعثر لحد الآن على نص تاريخى آخر يعزز بناء الإمام داود لجامع القرويين ،

---

(١) مجلة كلية الآداب — الاسكندرية ، العدد ١٤ سنة ١٩٦٠ ص ٦٠ — ٨٨ — المؤتمر الثالث للآثار العربية ، نشر الجامعة العربية صفحة ٤٤٥ — ٤٦٥ ، التازى : جامعة القرويين فى أحد عشر قرناً ، طبعة المحمدية ص ٨ .

(٢) رسالة فى ذكر من أسس مدينة فاس (مخطوطة) مجهولة المؤلف بمعهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية تحت رقم ٩١٧٢٠٢ ح .

(٣) مخطوط فى تاريخ الادارسة من كتاب نهاجن مسور بمعهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية .

ونظراً لـكون النقش المشار إليه لم ينص بصفة واضحة على لفظ القرويين ، أقول مراعاة لـكل ذلك نجد أنفسنا بين احتمالين :

فإما أن يكون ابتداء البناء كان فى رمضان ٢٤٥ فى أيام يحيى ولـكنه استمر إلى سنة ٢٦٣ أيام داود بن إدريس وتـكون فاطمة استغرقت فى صومها كل هذه المدة ، ويؤيد هذا الرأى أولا ما استهدفت له البلاد من حالة الجفاف فى هـذه الأثناء ، وثانياً ما تعهدت به فاطمة والتزمت من استخراج كل مواد البناء من نفس البقعة تحريماً ، وثالثاً أن المصادر التاريخية إنما تحدثت عن ابتداء البناء ولم تتحدث عن انتهائه ، فكل هذا مما يبرر استغراق كل هذه المدة .

وأما أن يكون البناء تم فى نفس السنة نظراً لـكون الجامع — ومساحته لا تصل إلى ألف متر مربع — لا يمكن التهاون فى أمر بنائه طيلة ثمانيـة عشر عاماً . . . ويفسر وجود داود بن إدريس هنا بأنه فى الفترة التى كان « يدافع » فيه يحيى ، تمـكن فى بعض الظروف من الاستيلاء على عدوة القرويين وتخليـداً لهذا الفوز الذى حصل عليه فى عدوة القرويين ورغبة فى أن تعرف الأجيال القادمة أنه « كان هنا » فقد شاء أن ينقش اسمه كنصب تذكارى فى هذه الجهة ، ولما كان الملوك ، والرؤوساء يختارون أبرز مكان وأشهره لتخليـد أسمائهم ، وكان أفضل مكان فى المسجد وأطهره هو المحراب فقد تم ضرب هذه « الأرزة » عليه حتى تظل أمام المتعبدين والقاصـدين . بقى أن يتسائل عن اختفاء اسم فاطمة من اللوحة مع أن النصوص المذكورة تتضافر على أنها المؤسسة ؟

فإنا نعلم أن التقاليـد القديمة لا تلح فى ذكر أسماء النساء على المبانى سيما مع ما أثر من أن الشعوب قد تقوم بالمشاريع وترجو إلى الملوك تبنيها تقـديراً لهم وتـكريماً لمقامهم .

وبعد . . . فهل ستكون هذه كلمتنا الأخيرة حول تاريخ بناء القرويين ؟

عبد الهادى التازى